انتصار المقاومة في ميزان حرب القيم

عبد الحق لبيض

يجب عدمُ أخذ تصريحات قادة إسرائيل عن ضرورةِ جولة ثانية وربما ثالثة ضدّ حزب الله على أنّها انعكاسٌ فحسب لواقع التدافع السياسي الداخلي بين الأقطاب الإسرائيلية. ولا ينبغي النظرُ إليها باعتبارها مجردَ دعايةٍ إعلاميةٍ تَهْدف إلى التأثير النفسي على المقاومة خاصةً، وعلى الشعب اللبناني عامةً. بل يجب أخذُها على محمل الجدّ، إذ لا يُعْقل أن تكتفي إسرائيلُ من الغنيمة بالإياب في حربها على حزب الله. الأكيد أنّ إسرائيل لم تعلن العدوانَ على لبنان لمجرّد تدمير البنية التحتية اللبنانية (التي تُدْرك أنّها ستُعمَّر)، ولا لقتلِ عددٍ كبيرٍ من المدنيين العزّل، ولا حتى لردع حزب الله أو إبعادِه عن الحدود الشمالية لفلسطين المحتلة وإنما دخلتِ الحربَ، وبتفويضٍ من القوى الإمبريالية العالمية، لمحاولة القضاء على **منظومة القيم** القائمة في المنطقة العربية، والمتمثّلة في المقاومة والصمود والممانعة، ولاستبدالها بقيم أخرى تُمكِّنُها من تطويع إرادة الأمة حتى يَسْهل على القوى الإمبريالية إعادةُ صياغة المنطقة وفقًا لِـ «مشروع الشرق الأوسط الكبير.»

في عهود الاستعمار القديم، كان الاحتلالُ المباشر، ونهبُ خيرات الدول المستعمَرة، والرغبةُ في التوسُّع وكسبِ أسواق جديدة، هي القضايا الأبرز في الأهداف العامة لهذا الاستعمار. ولم تكن مسألةُ تغيير القيم ذاتَ أولويةٍ كبرى، وإنْ لم تكن غائبةً عن أذهان الإدارات الإستعمارية آنذاك. أما الإمبريالية الجديدة، فهدفُها الأساسُ هو تغييرُ القيم. وهذا ما باشرت العملَ به في أفغانستان والعراق والسودان ولبنان وفلسطين، وفرضتْه في مناطق أخرى من العالمين العربي والإسلامي، بعد أن كانت قد بَشّرتْ به فكريّاً في مطلع التسعينيات من خلال مقولة «صراع الحضارات» التي رَوَّج لها أقطابُ الفكر الإمبريالي أمثال برنارد لويس وهنتنغتون وفوكوياما وغيرهم من منظِّري الصراع مع منظومة القيم الحضارية «القديمة.»

إنّ منظومة القيم الجديدة التي تسعى الإمبرياليةُ الأميركيةُ إلى فرضها على العالم تتمثّل في ما يعبَّر عنه في أدبيات الحداثة الغربية بـ «الإرادة العامة» ـ وهي الإرادة التي تكون معاييرُها مقبولةً باعتبارها صحيحةً وسليمةً، مثل مبدإ «قانون الكليّة» كما صاغه هابرماس. فهذا المبدأ يُرْغِم كلَّ الأفراد على القبول بالمعايير الأخلاقية التي تقود إلى فهمٍ للأخلاق قائمٍ على العقل ومبدإه الكلياني، ومَصُوغٍ ضمن معالمِ ثقافةٍ «كونية» تلغي الاختلافَ وقيمَ التعددية.

إنّنا، إذن، أمام محطة جديدة بعناوين مغايرة لما أسماه ألان توران «المرحلةَ الملحميةَ والقمعيةَ لحداثتنا» ـ ويَقْصد: الحداثةَ العقلانيةَ الغربية. فإذا كانت هذه الحداثةُ قد هدفتْ في الماضي إلى تحويل العالم إلى تقنية عبر تسييد قيم العقلانية المجرَّدة، فإنّها اليوم تسعى إلى فرض رقابةٍ كونيةٍ على القيم من خلال حرصها على اجتثات كلِّ الإراداتِ المناهضةِ للتدجين والتعليب والخنوع.

ومعركة القيم، هذه، هي بالتحديد ما أشار إليه رئيسُ الوزراء البريطاني طوني بلير في محاضرةٍ له في «مجلس لوس أنجلوس للقضايا الدولية» عندما قال: «إنّ جيوشَ العالم الحرّ لا تحارب اليومَ من أجل دحر جيوش نظامية والانتصار عليها، أو بغيةَ إسقاطِ أنظمةٍ سياسية معادية، وإنما هدفُها تغييرُ القيم إنّنا نحارب من أجل أن نُعلِّمهم القيمَ الجديدة.» إنّ الإمبريالية، إذن، تحارب من أجل فرض قيم جديدةٍ تبدأ، في المنطقة العربية، من فرض إرادة الاستسلام ضدَّ العدو الصهيوني واشتراطاته، باعتبار ذلك هو البوّابةَ «الديموقراطيةَ» و«الحداثة.» وقد اتّخذتْ هذه الحربُ أشكالاً متعددة بدأتْ من الغزو المباشر، كما حصل في أفغانستان والعراق، إلى محاولةِ استثمار «عرب البيت» (بتعبير طارق علي) أو «الشحّاذين على عتبات الحكّام ومائدة الدول الكبرى» (بتعبير مظفّر النواب) المستعدِّين لترجمة شروط الإمبريالية إلى أجندةٍ وطنيةٍ مقدسة. وهذا ما حصل في لبنان بعد اغتيال الحريري، واستصدارِ القرار ١٥٥٩، وتوتيرِ الجوّ السياسي لتمهيدِ الطريق أمام صراعٍ داخلي يُعفي القوى الإمبرياليةَ من التدخل (وهذا ما لم يتمّ لهم) أو أمام تدخُّل عسكري مباشر يغيِّر قواعدَ اللعبة في المنطقة (وهذا ما تمّ بتكليفٍ مباشرٍ من هذه القوى لحليفتها في المنطقة إسرائيل)

انتصار المقاومة في ميزان حرب القيم

من واقع هذه التفاعلات وأبعادِها المهدِّدةِ لكياننا الحضاري والقيمي، وَجَبَ الابتهاجُ بما حقَّقه صمودُ المقاومة اللبنانية في مواجهتها لأتون الحرب العالمية الجديدة على القيم. فقد كان لبنانُ مدخلاً جديدًا لإعادة صياغة «الشرق الأوسط» بما يَخْدم مشاريعَ الإدارة الأميركية التسلطية على الأمم، بعد أن تَعَثَّر في العراق وأفغانستان. لقد نُظِرَ إلى لبنان باعتباره الحلقةَ الأضعفَ في المنطقة، والمدخلَ السهلَ لتحقيق أهداف مشروع «الشرق الأوسط الجديد» الذي لَوَّحتْ به وزيرةُ الخارجية الأميركية في أول خروج إعلاميّ لها بعد أن دُكّت الضاحيةُ الجنوبية بالقذائف الذكية الأميركية. غير أنّ صمود المقاومة اللبنانية قَلَبَ قواعدَ اللعبة، وجَعَلَ من البوّابة اللبنانية جحيمًا لا يطاق لقوى الشرّ الإمبريالي.

لكنّ واقع الحال يشير إلى أنّ العدوان على الأمة العربية مستمرّ. فإوارُ هذا العدوان ما زال مشتعلاً على جبهة فلسطين وبوصلةُ الضغوط والإكراهات تتّجه الآن نحو إيران من خلال ملفّها النووي، وإلى السودان من خلال فرض إرسال «قوات دولية» إلى دارفور بما يتعارض مع سيادة الدولة السودانية واستقلالها. أما في لبنان، فإنّ العدوان على المقاومة سيستمرّ، وقد يؤجَّل، اليومَ، النظرَ في الخيار العسكري، نظرًا إلى صمود المقاومة، لكنْ لن يتمّ استبعادُه كليّاً في المستقبل. وأما الخيارات التي تُراهِن عليها اليومَ القوى الصهيو ـ الأميركية فيُمكن حصرُها في العناصر التالية:

أولاً: العودة مجدَّدًا إلى الرهان على «عرب البيت» أو «الكومبرادور المحلي» لتطبيق الأجندة الإمبريالية، وعلى رأسها نزعُ سلاح حزب الله كمدخلٍ أساسيٍّ لفرض سياسة «الواقعية» الدّاعمة للتفاوض المباشر مع الكيان الصهيوني. وبالمناسبة، فإنّ هناك نخبةً سياسيةً لبنانيةً مستعدةً لذلك في الوقت الراهن، بل وحبلُ وصالها ممتدٌّ مع الدوائر الرسمية في واشنطن، وبتزكيةٍ من أنظمةٍ عربية تتزعّم ـ بقدرةٍ قادرٍ ـ تيّارَ «الاعتدال» في الوطن العربي هذه الأيام!

ثانيًا: ضربُ ثقافة المقاومة والصمود في فلسطين من خلال مسلسل الاغتيال والاعتقالات والاختطافات، ومن خلال تحريك «عرب البيت» هناك من أجل تطويق حكومة «حماس» وإرغامها على الاستقالة (علمًا أنّ استقالةَ حكومة «حماس،» ورفضَها تشكيلَ حكومةِ وحدةٍ وطنيةٍ بإملاءات صهيو ـ أميركية، وعودتَها إلى خندق المقاومة، شرفٌ لها وليس فشلاً)، ليبدو ذلك انتصارًا للقوى الصهيو ـ أميركية ضدّ القوى المقاومة، ودرسًا لمختلف القوى المقاومة العربية والإسلامية الأخرى.

ثالثًا: محاولةُ إخراج سوريا من تحالفها مع إيران وحزب اللّه، وذلك بتقديم وعود لها على جبهة الجولان، ورفع الحصار الذي يطوِّقها، وإسكاتِ المعارضة الخارجية للنظام السوري المدعومة غربيّاً، مقابلَ تخلّي السلطات السورية عن دعم المنظّمات المسلّحة ـ سواء حزب الله أو المنظمات الفلسطينية التي تتخذ مقرّاً لها في دمشق.

تلك خياراتُ ما بعد فشلِ الاعتداء الإسرائيلي على لبنان. لكنْ إذا فشلتْ هذه الخيارات، فلن نتصوّر أنّ أميركا ستقف دون تحريك أسباب مغامرة عسكرية واسعة أُخرى ضدّ لبنان، وربما بعد انتزاع قرار جديد من الأمم المتحدة، وتحت البند السابع، يقضي بنزع سلاح حزب الله بالقوة. وستكون «القوى الدوليةُ» المحتشدةُ الآن في الجنوب اللبناني لاعبًا أساسيّاً فيه هذه المرة.

تأسيسًا على ما سبق يَظْهر أنّ عنوان المعركة العالمية اليوم ضد الأمة أصبح مكشوفًا. وعلينا، من ثمّ، أن نتنبّه إلى الأبعاد الخطيرة لهذه المعركة على الهوية والوجود العربيَيْن، وأن نخوضَ معركةً سياسيةً وفكريةً وثقافيةً ضدّ إرادة القهر العالمي لمنظومة قيمنا، وذلك من خلال:

أولاً: الكشف عن زيف خطابات جوقة المهلِّلين لثقافة السلام والحوار مع الكيان الصهيوني، والعمل على تنمية ثقافة المقاومة والصمود.

ثانيًا: الدعوة إلى إقامة حوار فكري صريح وواقعي حول واقع المذاهب الدينية في العالمين العربي والإسلامي، ولذلك لسدّ

غابرييلا بوليسوفا — الضوء من خلال زجاج مكسور في منزل جنوبي

الطريق أمام استغلال أميركا وحلفائها للاختلاف المذهبي في الفكر الديني الإسلامي.

ثالثًا: دعم حملة المقاطعة ضدّ الشركات الأميركية والسفارات والبعثات الأميركية داخل الدول العربية وبالمناسبة فإنّنا ننوّه بمشروع العريضة التي تحضِّرها فعالياتٌ من المجتمع المغربي، على رأسها «الجمعيةُ المغربيةُ لحقوق الإنسان» و«النقابةُ الوطنيةُ للصحافة المغربية» و«الجمعيةُ المغربيةُ لمساندة الكفاح الفلسطيني» ـ وهي عريضةٌ تَهْدف بالخصوص إلى مقاطعة كافة الأنشطة الرسمية التي تنظِّمها السفارةُ الأميركيةُ بالمغرب، ومقاطعةِ المنظمات والهيئات والمصالح المرتبطة بها، على اعتبار أنّ هذه المؤسسات ولواحقَها رأسُ الشرّ في أوطاننا ووكرُ رموز الكومبرادور المحلي.

رابعًا: عولمةُ قيم المقاومة للمشروع الإمبريالي ـ الصهيوني. وهذا يعني إخراجَها من الحيِّز الديني والقومي إلى الحيِّز العالمي من خلال استثمار مكتسبات القوى المعادية للإمبريالية عالميّاً، وتوظيف التعاطف الدولي مع المقاومة اللبنانية والفلسطينية. يُضاف إلى ذلك ضرورةُ استلهام أطروحات فكر «ما بعد الحداثة» الداعي إلى الاعتراف بحق الآخر في الحياة، واعتباره جزءًا من حضارةٍ إنسانيةٍ متعددةِ القيم والثقافات والانتماءات.

إنّ معركتنا جميعًا، مثقفين وسياسيين وفاعلين في المجتمع المدني والجماهيري، هي مواجهةُ تحدِّي الحرب العالمية للقيم التي تقودها الفاشستيةُ الصهيو ـ الأميركية، وذلك بمزيد من تثبيت قيم المقاومة والممانعة لدى الشعوب العربية

الدار البيضاء

عبد الحق لبيض

كاتب مغربي مراسل الآداب في المغرب